المشكلة تكمن في استبعاد هذا التغيير ذاته، حتى عن مجرد كونه افتراضاً محتملاً. وهكذا، فاذا كان علم الاجتماع، المختص بدراسة المجتمعات ما قبل الرأسمالية، يبحث في بنى القرابة، والزواج، والعلاقات الجنسية، لتكوين صورة عن المجتمع والعالم[٢٧]، فان دراسة الشرق، ومن ضمنه العالم العربي، تبحث، بصورة مشابهة، في نظام القرابة، والدوافع الشخصية، والمؤامرات، والدسائس، وانماط المناورة، باعتبارها السمة الجوهرية للحياة السياسية.

«خطاب الانقسام» اليساري

اذا كانت الافتراضات السابقة، في محاولة تفسيرها لظاهرة الانقسامات، انتهت ـ كما رأينا ـ عند نقطة اشكالية مغايرة، تقوم على الاقصاء المسبق لأي افتراض قائم بوجود تحولات دينامية طرأت على بنية المجتمع العربي، الامر الذي يطرح اسئلة ضمنية حول معنى التحدث عن وجود حركات ثورية في المنطقة واستبدال ادوات التحليل الاقتصادي والاجتماعي برموز اخرى للتعبير عن موازين القوى في اطار الحركية السياسية، حيث «تؤلف المؤامرات بين النخب الدائرة علاقة القوة»، فان اول مسألة حاول الفكر الماركسي الفلسطيني التصدي لها هي اعادة الاعتبار ـ بالمعنى المجازي ـ الى الابعاد الاجتماعية والاقتصادية لتفسير الحركية السياسية؛ وعلى وجه الخصوص للبرهنة على ان المصلحة القومية تخضع للمصلحة الطبقية، وذلك بحسب وجهة النظر الماركسية الشهيرة التي تنظر الى التاريخ باعتباره مسرحاً للصراع بين الطبقات[٢٨]؛ وان الثورات هي الشكل الذي يعبر عنه هذا الصراع الطبقي.

وبغض النظر عن التجاوز الذي ينبثق من هذه الاستعارة، من الناحية التعميمية، فمن الضروري القول ان الاخذ بهذا التحليل، الذي يشكل نسفاً كاملاً للافتراضات السابقة، من الناحية المبدئية، لم يستتبع بالقيام بايجاد تفسير، او حل، للمعضلة الاخرى التي تبرز تجاه تعميم وجهة النظر هذه، أي البحث في طبيعة نمط الانتاج[٢٩]. ويبدو من الضروري التوقف قليلاً عند هذه الملاحظة لاستخلاص الدلالات التي تنطوي عليها.

ان الدلالة الوحيدة، الاكثر اهمية، لهذه الملاحظة، بالنسبة الى هذا البحث، يمكن ايجازها في ان مغزى هذا التحول (الثوري) في التنظير الايديولوجي الذي يستشف من التحليل الماركسي الفلسطيني، لا يتعدى، في الحقيقة، عملية استبدال اطار مرجعي ايديولوجي باطار آخر، وذلك ضمن سياق استمرارية واحدة[٣٠] في نمط الادلجة، تعبر عنها الضحالة والضعف البالغان في القيام بأي جهد فكري ثقافي لاستقصاء كنه الواقع، والبنية الاجتماعية، وتطوير ادوات ومفاهيم التحليل الماركسي، بصورة مطابقة لهذا الواقع[٣١]. ان الانتقائية في ماركسية الجبهة الشعبية «الماويه»، و «تروتسكية» الجبهة الديمقراطية، في المرحلة المبكرة من استعارة الماركسية[٣٢]، لا تعبر الا عن صورة هذا التحول القسري، الذي لا يقل، في مغزاه، عن عودة هذين الاتجاهين، لاحقاً، الى حظيرة المرجعية الماركسية «التقليدية»، التي يتبناها الحزب الشيوعي الفلسطيني، باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للارثوذكسية الماركسية الرسمية، على الصعيد الدولي. وربما أمكن، عبر دراسة مغزى هذه الانتقائية المبكرة، العثور على تفسير جزئي لاسباب تعثر المحاولة الماركسية الفلسطينية تحقيق اختراق في بنية التحليل السابق، غير انها يمكن ان تصلح مدخلاً لفهم ذلك الهامش من التباين الذي ظل قائماً، فيما بعد، يميز ماركسية الجبهة الشعبية عن ماركسية الجبهة الديمقراطية، حيث تميزت الاخيرة بقدرة اعلى في استجابتها لتقديم تحليل سياسي يتصف، الى حد كبير، بالمرونة والواقعية، الامر الذي يفسر، ايضاً، الشكوك والاتهامات التي ظلت تحيط بمواقف الجبهة الديمقراطية من جانب